

الطفل الصورة

فريد محمد معوض

صورة على الجدار

فيها طفل بوسني

بيكي ليل نهار

هذا الطفل البوسني كان لديه لوح وكتاب، وأوراق وألعاب وغطاء أبيض وجلباب، وكان يلعب مع أحمد ومحمود وعلي لعبة الاستخفاء، يدورون حول الجامع يحرون وسط الشارع، يرقبون نجماً لامعاً في صدر السماء يسألونه كيف ترى العالم، صغيراً أم كبيراً تراه.

وكان أبوه يؤذن في الجامع حين تحين الصلاة، كان يقول: «الله أكبر» فتشرق الشمس على سرايفو، وتغرد الطيور السابحة في فضاء الله، كان يقول، بعد أن يشهد الله وللرسول: حيّ على الصلاة.. فتسجد جباه وتعلو جباه، وتطير العصافير صوب سحابة داكنة في الأفق فتحولها إلى صفاء في صفاء..

هذا الرجل المؤذن سمع نداء الجهاد ينذر بقدوم الأوغاد فراح يردد: حيّ على الجهاد.. فأصبح يؤذن للصلاة ويؤذن للجهاد.

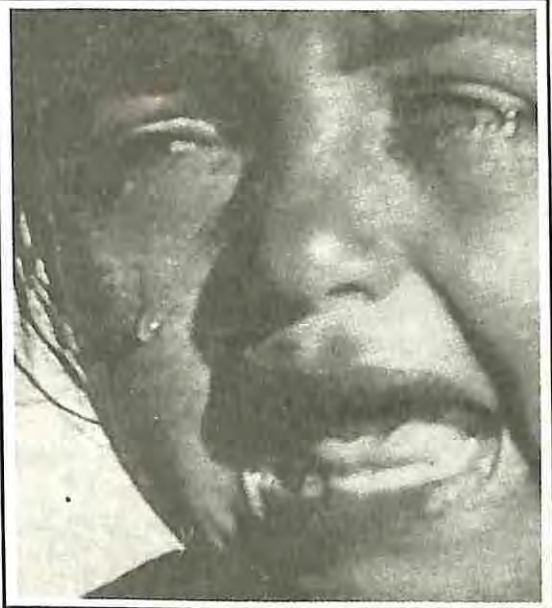
يتقدم إخوته، يدوسون فوق النار، يرددون: لا إله إلا الله.

أطلق الأوغاد النار فوق المؤذن فجأة مبتسماً فأشرقت الشمس على سرايفو، بل على الدنيا كلها.

الطفل البوسني ردد النداء - نداء الصلاة ونداء الجهاد بدلاً من أبيه، شظية طارت من مكان مجهول أوجعت

وجه الطفل البوسني، شعر بالألم فبكى، كان الجرح في قلبه أشد إيلاماً من الجرح الذي في وجهه، لم يغتم، ولم يهتم، راح يردد: لا إله إلا الله - مثلما كان أبوه يردد في وجه العتاة، ثم غاب عن الوعي لحظة، وأفاق تحوطه الجرحى، وسمع مصاباً يردد: مرحى لنا بالشهادة مرحى.

فرت من عينيه دمعة حزينة، التقطها مصور بارع، في يوم حزين، حين كانت الشمس تلملم خيوطها للرحيل، وأتوا بصورته، وزعوها مع شروق الشمس على الدنيا، وصار الطفل البوسني صورة تملأ الحوائط، وكان من حظي صورة علقتها على الجدار، يا حزني كلما رأيته.



صورة على الجدار

فيها طفل بوسني

بيكي ليل نهار

ظاهرة الأدب المكشوف في كتب التراث

د. محمد رجب البيومي

الأدب في أبسط تعريف، هو التعبير الجميل عن الخاطر النبيل، والباطن النبيل لن ينحط إلى إسفاف مبتذل، لأن لكل إنسان مطامحه التي ترتفع به إلى السمو، والآنم حين يقارن الخطيئة لا يخلو من خزائنه النفسية تعاوده، لأنه في قرارة نفسه يعترف بجرمه، والعربي القديم في صحرائه الممتدة، وقراء المتباعدة كان يرتفع بنفسه عن التبذ، فلديه مجموعة من الأخلاق الفاضلة تأمره بالنجدة والكرم والشجاعة والعفاف، ومن هنا لم نجد في الشعر الجاهلي أثراً للغزل بالذكر، لأن الطبيعة الفطرية للإنسان السوي تنأى به عن الانحدار، وقد كذب أبو نواس حين قال:

لو أن مرقشاً حيٌ
تعلق قلبه ذكراً

العربي في صحرائه قد ألف رؤية الحيوانات حين تتناسل، فدعاه ذلك إلى الإفحاش في القول والعمل، كما أن احتجاب المرأة قذّف به إلى الغزل بالذكر، وهو قول من لم يذُرِ الأدب العربي، وتاريخ العرب معاً، وقد فنّده الأستاذ عباس محمود العقاد فأكد أن العربي لم يعرف الإفحاش في القول والعمل قبل أن تختلط الأنساب ويكثر الهجين، وأن الغزل بالذكر قد شاع في العصر العباسي الذي كانت تزدهم به بيوت النخاسين، ومجالس القصور بمشاة الجوّاري، وإذن فوالبة ومطيع بن إياس، وأبو نواس ومن تفرّجوا بالذكر لم يكونوا محرومين من المرأة، أما العجيبة أيضاً فهي أن يرى سلامة موسى عشرات الأدباء في أوروبا مصابين بالشذوذ الجنسي مثل أوسكار دايلد ومن على شاكلته، وجميعهم يُحالطون المرأة في عهد السفور، ثم يزعم أن احتجاب المرأة قد أوجد مثل أبي نواس: أليس هذا جهلاً بالماضي والحاضر معاً!!

إذا انتقلنا إلى العصر الأموي، وهو عصرٌ سيطرت فيه القصيدة الشعرية بحيث تضاءلت جوارها الفنون الأخرى، فإننا نجد تيارين مختلفين، تياراً يمثله أصحاب النقائص، وهو مما ينحدر في أحيان كثيرة إلى الإسفاف والتبذل، وتياراً يمثله العذريون من أمثال جميل وقيس وكثير وأضرابهم، ممن اكتفوا في سعي الشوق فنصحت أشعارهم بأعذب آيات الوجدان العفيف، ومن سوء حظ الدارسين لهذا العصر، أنهم احتفلوا بشعر النقائص أكثر مما يستحق، فأفردت له الدراسات، وعدّ أعلامه في مقدمة المبدعين. ونحن لا ننكر مكانة جرير أو الفرزدق أو الأخطل. ولكننا لا ننكر أنهم كانوا يتقاذفون بالأوصار، بل كانوا يختلقون المثالب الندية لتضاف إلى الأجداد تفخياً واستبشاعاً، هذا اللون المنحدر من الأدب الأموي قد وجد لدى المستشرقين في جامعات الغرب من يشتدّ لديوعه وتحليله. وكأنه الطابع العام للأدب العربي في هذا العصر وماذا يقول معارضهم، وهو يعرف أن جريراً والفرزدق والأخطل من أعلام

فالمرقش الجاهلي شاعرٌ عفّ، ينحو منحى العذريين، سواء كان الأكبر أم الأصغر، فقد عشق المرقش الأكبر البكري أسماء بنت عوف ابنة عمه مذ كان صغيراً، وخطبها إلى عمّه فاشترط عليه شروطاً مجحفة كلّفته أن يغادر العشيرة ليعود ثرياً ذا جاه، ثم خاب مأمله حين أب ليجد أسماء قد تزوجت في قبيلة مراد، وهام على وجهه - في قصّة طويلة - ليراها، ثم أدركه الموت مجروحاً، فالعاشق الذي مات غراماً بفتاة لم يستطع أن يحنّ إلى سواها ممن يشاركنها الجمال والشباب، وما أكثرهنّ في باديته.

لا يقال إنه سيتعلق ذكراً إذا رآه! أما المرقش الأصغر فقد امتدت مطامعه حتى عشق فاطمة بنت المنذر الملك، ولم يُوفّق إلى الاقتران بها فمات متحسراً، وهو الذي يقول:

صحا قلبه عنها على أن ذكره إذا خطر دارت به الأرض قائماً

وإذن فقول أبي نواس ضرب من مجونه المشتهر، ونحن إذا طالعنا ما أثر لدى شعراء الجاهلية والمخضرمين من غزل، نجد أكثره عفيفاً، ينزع إلى المروءة، ويطمح للشرف والطهر، ولدينا قصائد عنتره، وعبدالله بن علقمة، وعروة بن حزام صاحب عفراء، وعبدالله بن العجلان، ومسافر ابن عمرو بن أمية، وجحدر بن ضبيعة، وعدي بن زيد، وكلهم قد أحبّ فما نطق بالعوراء، مما يدل على براءة السرية، وصفاء الطوية، والإباحيّن على نُدرتهم من أمثال امرئ القيس لم يكونوا ذوي إلحاح متكرّرين، بل يُسقون قليلاً قليلاً، ويعتدل بهم الطريق، وهم في إسفافهم الشائن يتحرزون من المكاشفة الصريحة فيؤثرون التلميح، كما قال أحدهم.

ألا زعمت بسباسة اليوم أنني كبرتُ وألا يُحسن السر أمثالي

فقد اكتفى بكلمة (السر) دون أن يُفحش، وهي لعده تعبيرٌ كناثي

لا حقيقي:

وأذكر بهذه المناسبة أن سلامة موسى كان قد ذكر في مقال له أن

الشعر ! إنه ينتهي حتماً إلى النتيجة التي حرص هؤلاء المستشرقون على ترسيخها في الأذهان، وهي أن الشعر العربي يهبط بقارنه لهبوط قائله، وهبوط من احتفلوا في مجالس الخلفاء وتداولت الأمراء، ومجموعات الشعر، على حين قد غفلت أو كادت هذه الدراسات عن التيار الشريف الذي أوجده العذريون.

ولقد ضاعف من ازدهار شعر النقائص أن جامعي اللغة العربية من شيوخ العلم قد وجدوا في هذا الشعر، وبخاصة لدى الفرزدق ما سد حاجتهم في اصطلياد الغرب والاحتفاء به، على حين كان الشعر العذري غير مؤهل في أكثر مقطوعاته لملء هذا الفراغ، مع استثناء ذي الرمة الذي احتفل به اللغويون، لا لما قال في الحنين إلى مي وخرقاء، بل لما وصف من عورة الصحراء واصطياد حمر الوحش، ولا علينا بعد ذلك كله أن نقول إن الشعر العربي في مجموعه قبل العصر العباسي كان بريئاً من الإسفاف، وأقول في مجموعه لنخرج أمثال النقائص، وبعض الغزل الحسي المنسوب إلى مدرسة عمر بن أبي ربيعة ومن انتحى منحاها...

هذا بعض حديث الشعر، نتركه برهة لنرى مبدأ التأليف الأدبي في فاتحة العصر العباسي تقريباً لا تحديداً لأن مثل ابن المقفع لم يظهر فجأة في مفتتح عهد بني العباس، ولكنه زاول أمور الفكر منذ شب يافعاً، وأتيح له أن يكون رأساً من رؤوس البيان بما كتب وترجم، وبين أيدينا من آثاره الشاهدة كتاب الأدب الصغير وكتاب الأدب الكبير، وما ترجمه من صفحات كثيرة ودمته. وكلها تنطق بالتزامه الخلقي. وارتفاعه إلى مستوى عال، يجعل صاحب القلم حكيماً ذا رسالة. وفي الناس من يصدّقون مزاعم مُفتراة الصفت به الصادق، دون أن تجد لها صدقاً فيما كتب، مع أن ما بقي من آثاره هو الوثيقة التي تنطق بآثاره، ولا ننسى أن الرجل قد قُتل مظلوماً، وإن وافق الشنن الأرفع من مذاهب الوفاء والإخلاص، ومثل هذا الصريع لا بد أن يفترى عليه تزلفاً للقاتل، ولعل أعظم هذه المفتريات ما نسب إليه من الزندقة، والولوع بمجالس الشراب، والأستاذ الكبير محمد كرد علي في الجزء الأول من أمراء البيان^(١) يرى أن هذا من أكاذيب صاحب الأغاني؛ لأنه كان مولعاً بتقصّص الناس، وبرمي الحكماء بالتحلل، كي لا يعاب عليه ما انغمس فيه من ملذات!

نقول إن آثار ابن المقفع الأدبية قد جانبت الرجس، وسمت عن التبدل، ولو قدر لمذهب الخلقي أن يشيع فيها وإليه من المؤلفات لكان التراث الأدبي مثلاً علياً للسلوك الإنساني، ولكن الذي تولى زعامة النشر الأدبي من بعده هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ولا يعدل الجاحظ كاتب من معاصريه في سطوة بيانه، وتدقيق أفكاره، وخوضه في كل مذهب ووقوفه موقف المحامي الذي يتخذ قضية ما عادلة أو ظالمة، ليصافح عنها ببراهينه الدامغة، وليجد من أبعينه الفاتكة أدلة تؤيد الباطل

في موضع، وتنصر الحق في مواضع، وكان مما ارتاح له كل الارتياح أن يتحدث عن الخلاعة والخلعاء، وأن يرى في الحديث العايب تشيخاً للذهن، ووسيلة للترفيه، فملاً كتبه وبخاصة أجزاء الحيوان، ورسائله المتداولة بما كان في حل من تجنبه؛ لأنه لا يعود لقارنه بغير الارتكاس، ومحاولة الترفيه لا تتأني من الولوع بتسطير أخبار الساقطين والساقطات، وذكر المستور من العورات، وكشف الدفين من القبائح، ولكنها تكون بالنادرة الطريفة، والفكاهة اللطيفة، التي يتسم لها الشعر دون أن يندى لها الجبين، وقد أحس الكاتب الكبير أنه يسير في طريق لا يجد الترحيب ممن يحرسون على سلامة العقول، وارتقاء النفوس، فجعل يدافع عن منحاها في مواقف شتى بين صحائف كتبه، ونستشهد هنا بما يستطيع ذكره من رسالة (المفاخرة بين الجوّاري والغلمان) وهي رسالة ذات موضوع كان يجب على صاحب الرسالة الأدبية الرائدة أن يتحرّز عنه، لأننا إذا قبلنا أن نسمع حديث الجوّاري لا نقبل أن نجد من يدافع عن اصطحاب

الشعر العربي قبل العصر العباسي كان في

مجمله بريئاً من الإسفاف والنقائص

الغلمان، ويُحاول أن يسطر لهم من المحاسن ما يجعلهم موضع الرغبة، فال موازنة بين هذين مما يجب أن يترقّ عنه ذو رسالة هادفة، وهل الأدب في صميمه إلا رسالة السمو ومعراج الارتقاء، فموضوع الرسالة هابط هابط مهما تحلّ له الكاتب من الأعذار كأن يقول^(٢) ص ٩٥ .

«وكنا لما ذكرنا اختصام الشتاء والصيف، واحتجاج أحدهما على صاحبه، واحتجاج صاحب المعز والضأن بمثل ذلك أخيراً أن نذكر ما جرى بين اللأطة والزناة، وذكرنا ما نقل جمال الأنار وزوته الرواة من الأشعار وإن كان في بعض البطالات».

محاسن ولكن:

والقياس لعمرى مع الفارق، والفارق الشديد، لأن الذي يوازن بين الصيف والشتاء يسير في طريق مأموم، فسيان أن يكون الغلب لزمان الصيف أو زمان الشتاء، وكلاهما مما يُطاق ويحتمل، وكذلك لا ضير في أن نُفضّل لحم المعز على لحم الضأن أو نُفضّل لحم الضأن على لحم المعز، كما عقد الموازنة في ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان، ولكن الرجس كل الرجس، أن تُوازن بين اللأطة والزناة، فجعل هؤلاء وأولئك محاسن ومقاييس، ثم تكرر على المقاييس والمحاسن معاً بما يفتح سبيل الغواية للناس، وقد ابتدأ أبو عثمان رسالة بقول رواه عن الشعبي حين قال: إن

أساتذة أخلاق قبل أن يكونوا محققى تراث!

وتأخذني الحيرة إذا انتقلت من الجاحظ إلى ابن قتيبة، فقد كان خصماً لدوداً للجاحظ مع أنه تلميذه، وقد شنع عليه بأنه يروي المعائب والأصاحيك ويسفّ فيها يختار، وكان المنطق الطبيعي لهذا التشنيع ألا يُخدّو حذوه في إثارة المكشوف من القول ولكنه نهج نهجاً في بعض ما ألف من كتب الأدب والأخبار فهو يقول في مقدمة (عيون الأخبار)^(٤):

إثم كبير:

«وإذا مرّ بك حديث فيه إيضاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع على أن تصعّر خدك، وتعرض بوجهك، فإن أساء الأعضاء لا تؤثم، وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب، وأكل لحوم الناس بالغيب... ثم قال: ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث أن تجعله هجرك على كل حال، وديدك في كل مقال، بل الترخّص مني في حكاية تحكيها، أو رواية ترويها، تُقصّها الكناية، ويذهب بحلاوتها التعريض، وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السلف الصالح في إرسال النفس على السجّية، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع».

فماذا عسى أن نقول في هذا العالم المتحرّز، وهو من أهل السنة بمنزلة الجاحظ من أهل الاعتزال أنقول له: إن أدب القرآن ونهج السنة المطهرة غير ما ذكرت، فكتاب الله عز وجل يلجأ إلى الكناية لا إلى التصريح، حين يتعرّض إلى أدق الأمور المستترة فيقول «هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاه حملت حملاً خفيفاً فمرت به»^(٥) ويقول: «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، علم الله أنكم أنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم»^(٦)، وأحاديث الرسول تنحو منحى الكناية دون التصريح كأن يقول حتى تدوّقي غسيلته، وما يجري هذا المجرى وإذا كنا معك في أن المأثم في شتم الأعراض، وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب فإنها أيضاً تكون في الحديث عن السوءات بما يفتح العيون النائمة، وينبّه الأذهان الغافلة، ثم من السلف الصالح الذين يذكرون العورات في كتب يتداولها الناس؟ إن كان المراد بالسلف رجال الصدر الأول فهم لم يكونوا في عهد التأليف، حتى يُدوّتوا من المنديات ما تحزى له الأجيال، فكيف نستشهد بهم في هذا المجال، ونقول إننا نجري في القليل مما نذكر على عادة هؤلاء في إرسال النفس على السجّية والرغبة عن الرياء والتصنع:

لقد وجد ابن قتيبة من كتاب العصر من أيّده في منحا، ودافع عنه، لا شيء إلا لأن أدباء الغرب في عصرنا الراهن قد عانوه في كتبهم، وما عبّوا بمصطلحات قومهم، ذلك هو الأستاذ الكبير محمد كرد علي

القلوب تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة وقول الشعبي حق لا مريّة فيه، ولكن ما هذه الطرائف التي عنها الشعبي؟ إنها لن تكون بها إلا الجاحظ بعد ذلك من حديث عن الألفاظ الجنسية وقد ذكرها صراحةً مفنداً مذهب من يتحفظ في سردها، ثم ينقل بعض الرفث الكاذب المنسوب لأمثال علي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق، وعبد الله ابن عباس وحمة بن عبد المطلب، وهي عبارات مبتورة لعل بعضها -إن صح- قد قيل في ساعة من ساعات الغضب حين يخرج الحليم عن حلمه فيقول ما يأسف له بعد أن صدر في توتر نفسي! ويضيف إلى هؤلاء الكرام قولاً ينسب إلى من يُسمّى بأبي الزناد، وهو قول منحدر لا يجوز أن يقوله شيخ كبير لابن أخيه الصغير، ولنفرض أن هذا الشيخ -وأمثاله كثيرون- قد تنزّلوا إلى هذا الهراء السافل فما جدوى روايته؟ وكيف يلحق شيخ من هذا الطراز بأساء كريمة لأعلام من صحابة رسول الله! ليس ذلك خداعاً للقارئ. يجلّ عنه أديب كبير! إن رسالة المفارقة بين الغلمان

الإثم يتأتى من شتم الأعراض وتقول الزور

والكذب وأكل لحوم الناس بالباطل

والجوّاري وأمثالها مما تردّد في كتب الجاحظ لا تنقص مكانته الأدبية في شيء لو ترفع عن تسطيحها، فله صُحفٌ خوالد في جدّ الأمور، وفي هزها العفيف المحتمل، فلماذا التردّي في أعماق الأعماق من مآزق المنكرات؟!

ولدينا المثل الحي من مؤلفات الجاحظ، وهو كتاب البخلاء إذ رأت وزارة المعارف المصرية في سنة ١٩٣٧م أن يكون من بين مطالعات التلاميذ في المدارس الثانوية لذلك العهد، فعهدت إلى الأستاذين الكبيرين أحمد العوامري وعلي الجارم أن يقوموا على نشره وتحقيقه، فاحتفلا بالكتاب أكرم احتفال وأخرجاه مشروحاً مضبوطاً على نحو يُسرّ العسير، ويُسهّل الصعب، ثم رأيا كما ذكرنا في المقدمة أن يحدّفا من الإلفاظ ما عسى أن يمسّ الحياء^(٣)، وهو قليل في جملة، لأن الكتاب سيقع في أيدي المراهقين، ولا بدّ أن يرتفع بهم بذلك أن يهبط، وحسنّ ما فعلوا، دون أن يتخسّر الجاحظ شيئاً، ولكن الأستاذ الدكتور طه الحاجري رحمه الله، قد حقّق الكتاب في إخراج جديد، وحرّص على أن يذكر كلّ ما كتبه الجاحظ دون حذف! وبالمقارنة المنصفة لا أجد طبعاً وزارة المعارف قد منعت خيراً ما عن قارئها، وإذ التزم الدكتور الحاجري بالنص، وقام بالتحقيق الجيد، فإنه من ناحية ثانية قد قدّم الدليل على أن الحذف السابق لم يُنقص الأثر الأدبي في شيء، وإذا كان الأمر كذلك، فأنا أحبّد منحي الطبعة الوزارية، وحبذا لو حرص المحققون على احتذائها فهم

عندما أشرّف الأصهباني في اللذات والشهوات

والاحتفل بالجمرات الضعيفة في أخلاق الشخصيات

حين نقل قول ابن قتيبة بصدد حديثه عن صراحة الجاحظ مؤيداً، وزاد فذكر في تأييد دعواه^(٧) قول القديس كليمان من أدباء المسيحية: «أنا لا أنجل من الكلام عن الأعضاء التي يُخلَق بها الإنسان لأن الله لم ينجّل إذ خلَقها» وقول «مونتني» وهو في رأي الأستاذ محمد كرد علي من أعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين: «ماذا كان عمل الفعل التناسلي في الناس وهو طبيعي وضروري حتى شجبهوا وابتعدوا عن ذكره، فتراهم لا يحسرون على الكلام عنه إلا بشيء من الخجل، ويتعدون عنه في أحاديثهم، يا للعفة المكذوبة، ويا للنفاق المخجل» اهـ.

والفعل التناسلي قد وجد تحليله العلمي لدى علماء الطب والتشريح، وليس بمستنكر حيثثد، ولا بمستبعد، وإنما المستنكر أن يكون مثاراً للفتنة حين نذكره في كتب اللهو، والذين ينجلون من ذلك يحسون في أعماقهم أن من الأشياء ما يجب أن يستتر، وهل يجوز للمرء أن يقضي حاجته الضرورية أمام الناس لأنها أمر طبيعي، إذا استساع ذلك من يعدون قول الرفث شيئاً طبيعياً، فلهم أذواقهم المنحرفة، واتجاههم المريض.

ظهر أنا تميل إلى حذف الماجن الخليع مما دُون في كتب التراث، ولن يفقد التراث بهذا الحذف شيئاً ذا بال، وعندنا مثلاً ديوان الحماسة الذي جمعه أبو تمام، فهو من رائع المأثور من الشعر، وقد اخصيت ما به من الهجو العابت فلم يزد عن بضعة أبيات جاءت في باب الهجو وفي باب مذمة النساء، فهل إذا خلا ديوان الحماسة من مقطوعة أو مقطوعتين، تقوم القيامة، ويصبح الصائجون، هذا غبن للمؤلف هذا عبت بالتراث؟ ولرب سائل يسأل فيقول: هذا عن ديوان الحماسة؟ فما ظنك بكتاب كالأغاني جاوزت أجزاء العشرين وفي كل جزء صفحات ماجة ذات عدد وفير! أنحذف كل ما يتعلق بالمجون؟ أم ننشره كما كتبه مؤلفه؟

مجون كبير:

هذا السؤال المنطقي قد دار في أذهان الكثيرين قديماً وحديثاً، أمّا في القديم فكانت الإجابة عنه اختصار الكتاب على نحو ما فعل ابن منظور، وابن واصل في كتابيهما اللذين اختصرا عمل أبي الفرج! وغير ابن منظور وابن واصل قد حاول محاولتهما في مخطوطات لم تر النور بعد ولم نعرف غير اسمائهما، وهذا التراجع على اختصار الكتاب له ما يبرره عند المختصرين، وهو مع ذلك لم يطفىء بريق الكتاب الأول، إذ تعددت طبعاته، وأقبل عليه الدارسون شرقاً وغرباً ووُضعت عنه الرسائل الجامعية، توضح مرماه، وتزّن أحكامه، وتقول ما له وما عليه؟ وقد انتهت هذه أحكاماً صائبة تضيء أبا الفرج موضعه الصحيح، وقد استطاع الدكتور زكي مبارك أن يوجز هذه الأحكام في فصل قيم كتبه في مؤلفه الذائع عن النثر الفني في القرن الرابع، وفيه يقول^(٨):

«كان الأصهباني مسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشهوات، وقد

كان لهذا الجانب من تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بالخلاعة والمجون، وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ويهمل الجوانب الجدية إهمالاً ظاهراً، يدل على أنه قليل العناية بتدوين أخبار الجدة والرزانة والتجمل والاعتدال، وهذه الناحية من الأصهباني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه، ونظرة فيما كتبه جورج زبدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية»، وما كتبه الدكتور طه حسين في «حديث الأربعاء» تكفي للاقتناع بأن الاعتقاد على كتاب الأغاني وحده جرّ هذين الباحثين إلى الخطأ من أخلاق الجماهير في عصر الدولة العباسية، وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر فسق ومجون ولا أريد بهذا أن أحكم بأن الأصهباني كان يتعمد الاختلاق، أو أن الجمهور كان في العصر العباسي مغموراً بالطهر والعفاف، كلاً، فقد قلت غير مرة إن الحياة الإنسانية مزيج من الشك واليقين، والحلم والجهل، والهدى والضلال، وإن الإنسان لا يكون خيراً محضاً، ولا شراً محضاً، وإنما بقاؤه في أن تكون سرائره مسرحة لنوازع الغي والرشد، ولكتي أقول إن إكثار الأصهباني من تتبع سقطات الشعراء وتلمس هفوات الكتاب، جعل في كتابه جوّاً مشبعاً بأوزار الإثم والغواية، وأذاع في الناس فكرة خاطئة هي اقتران العبقري بالنزق والطيش والخروج على ما ألفت الجماهير من رعاية العرف والدين».

هذا بعض ما قاله الدكتور زكي مبارك عن كتاب الأغاني، وقد أشار إلى ما تورط فيه الدكتور طه حسين حين حكم على العصر العباسي بأنه عصر خلاعة ومجون اعتماداً على روايات الأغاني، وأكثرها مفتعل مختلق، ومؤرخو الدراسات النقدية المعاصرة يعرفون كم من الرّدود المُنحمة ووجه بها الدكتور طه حسين من أساتذة كبار يعرفون مصدر الخطأ في أحكام الدكتور طه حسين الخاصة بهذا الزمن من التاريخ العباسي، وهو اعتماده على كتاب الأغاني وحده، وكأنه تنزيل لا يأتيه الباطل.

ولم يحاول الدكتور الرد على أكثر معارضيه لأن لهجة النقد لديهم كانت ذات حمية مرتفعة الحرارة فرأى أن يغفل ما قالوه، ولكنه اضطر للرد على ما كتبه المؤرخ السوري الأستاذ رفيق العظم في نقد منحة النقي حين يجعل كتاب الأغاني أثراً عزيزاً، وشاهداً صادق الدليل، وقد جاء في رد الأستاذ العظم ما يعصف باتجاه الدكتور من أمانة، ورد الأستاذ منشوراً بالجزء الثاني من «حديث الأربعاء» وقد أوضح ما ما اقترفه الوضاعون من

الحذف والتنسيق والإكمال، إذ لا بدَّ في منطق الدكتور أن يخرج كتاب الأغاني كما أراد صاحبه أن يكون، لا كما حاول الخضري أن يخرج، وقد تعرض الدكتور إلى ما حذفه الخضري من ألوان الفحش فقال في صراحة^(١٠):

«ومسألة أخرى هي مسألة ما حذف من الكتاب، وأنا أعلم حقَّ العلم أنَّ من المتقدمين مَنْ كان يعدلُّ عن رواية الفاحش من الشعر سواءً أكانَ فحشهُ مؤذياً للعاطفة الدينية أو للأخلاق أو للآداب، أعرفُ أن ابن هشام عدل في السيرة عن شعر فاحش، وأعرفُ أنَّ المبرد أبى أن يروي كلَّ ما قال كعب بن جعيل في عليٍّ، وأعرفُ أنَّ أبا الفرج نفسه أبى أن يروي كثيراً من شعر السيد الحميري لأنَّ فيه سباً لأبي بكر وعمر، أعرفُ هذا كله، وأعرفُ أنَّ ابن قتيبة كان يُنكرُ مثل هذا التحرُّج، وهو يعييه عيباً شديداً في مقدمة كتابه المعروف (عيون الأخبار) أعرفُ إذن أنَّ القدماء كانوا في هذا الأمر كما نحنُ الآن، منهم من يتحرَّج من رواية الفحش، ومنهم من لا يتحرَّج، أعرفُ هذا كله، ولا أغترُّ مع ذلك رأيي في عمل الأستاذ تغييراً قليلاً ولا كثيراً، لك أنَّ تتحرَّج من رواية الفحش، أو لا تتحرَّج، ولكنَّ في كتاب تضعه أنت، لا في كتاب يضعه غيرك... إنَّ من الطغيان على أبي الفرج أن تحذف من كتابه شيئاً وضعه هو في كتابه، وإنَّ من الطغيان على قراء الأغاني أن تحرمهم قراءة شيء في الأغاني كان حقُّهم أن يقرؤوه، ولستُ أشك في أنك أردتَ الخير، ولكني لا أرى لإنسانٍ مهما يكن حقاً في أن يُكرِه الناس على أن يكونوا اختياراً فيما يقرؤون أو فيما يكتبون أو فيما يعملون».

هذا بعض ما قاله الدكتور طه، وقد اعترف أن للخضري أمثالا من السابقين كابن هشام، والمبرد، ولكنه رأى النزوع إلى الكمال لدى الخضري مما يُعاب! إذ لا يجوز له في منطق الدكتور أن يجبر الناس على أن يكونوا اختياراً! والأستاذ الخضري لا يستطيع أن يجبر الناس على أن يكونوا اختياراً ولكنه يمنع عنهم الشرَّ كيلا يقعوا فيه! فهل يُعاب؟

والطريف أن الدكتور الذي أخذ الخضري على التصرف في كتاب الأغاني، وكتب عن ذلك أكثر من مقال، قد أشرف على نشر كتاب (تجريد الأغاني) مع الأستاذ إبراهيم الإياري، وابن واصل الحموي، وفي التجريد قد حذف وبت، ونفى واختار، وهو بذلك كله يشترك مع الخضري في بعض ما صنع؟ فهل بدلت الأيام رأي الدكتور فشاء أن يرجع عن منحي قديم قد اتجه إليه، إنَّ كان الأمر كذلك. فليس فيه ما يُعاب، فالإنسان دائم البحث، وقد يظنُّ الصواب خطأ، والخطأ صواباً ثم يتضح له وجه الحق فيرجع عما ظنَّ، ونحن نقرأ المقدمة التي كتبها الدكتور طه حسين لكتاب تجريد الأغاني لابن واصل الحموي فنجدُه يقول ملتصقاً^(١١) تبرير ما يُشتر من كتاب مختصر: لقد ألف كتاب الأغاني

ماتم حين اختلَفوا القصص الكاذبة، ونسبوا للأبرياء، هذه القصص التي هي مادة الدكتور، وأساس حكمه المجازف، وإذا كان أكثر هذه القصص مختلفاً لا أساس له، فكيف تُصدر الأحكام الأدبية بناءً عليها، وما اعتمد على الباطل باطل لا يقبل الخلاف.

مهما يكن من شيء! فقد أصبح الدارسون من كتاب الأغاني أمام مشكلةٍ تتطلب الحلَّ، وإذا كان ابن منظور وابن واصل قد حاولا اختصاره تجنُّباً لبعض مآزقه، فإن مؤرخاً كبيراً هو الأستاذ محمد الخضري رحمه الله، قد فكَّر كثيراً حتى اهتدى إلى ضرورة تهذيب الأغاني، فسلخ بضعة عشر عاماً يقرأ ويستوعب حتى أخرج مهذب الأغاني في تسعة أجزاء، وترك العاشر مخطوطاً غير كامل فعمل على إخراجه أحد تلاميذه، ومن يعرف ورع الأستاذ الخضري، وقيامه على تربية النشء في الجامعات والمعاهد والمدارس يُدرك سرَّ اصطباره الطويل على تصحيح ما تورط فيه المؤلف من ناحية أولى، وإكمال ما يحتاج إلى إكمال من ناحية ثانية، وحذف ما تنفر منه الأذواق من ناحية ثالثة، وتبويب ما تشئت تحت مجموع متناسق من ناحية رابعة، وقد شرح في مقدمة الجزء الأول من المهذب ما قام به من جهد في الترتيب والضبط والإكمال والتفسير وتصحيح المحرّف، ثم قال في بعض ما قال مما هو بصد موضوعنا هذا ما نصّه: «إنَّ أبا الفرج رحمه الله كان في بيئته سمحاً له أن يضمّن كتابه كثيراً من فاحش الحكايات التي تُنفّسها بيئتنا، ولا تسمعُ بذكرها، فضلاً عن أن تُسطر في كتاب، فرأيتُ أن أحذف ما كان من هذا الطراز»^(٩).

رحمه الله أستاذنا الخضري، لقد جزم بأن بيئتنا المعاصرة لعهدِه في القرن الرابع عشر الهجري كانت أصحَّ إيماناً وأصدق يقيناً من بيئة أبي الفرج الأصبهاني في القرن الرابع، وقد انتقل الخضري رحمه الله إلى جوار ربه في سنة ١٩٢٧ ميلادية، ولو امتدَّ به الزمن حتى سمع ما يُمثل في الراديو من معابث، وما يُرى على شاشة التلفزيون في بعض البلاد الإسلامية من مقابح، لعلم أن التاريخ هو التاريخ! وأنا لا أسيء الظن بحاضرنا الراهن، ففي كثير من المسلمين حمية مخلصه، وترفع صادق، ولكن بعض القائمين على الإعلام كبعض مؤلفي القصص، يتملقون الغرائز، ويثيرون الشهوات، كما فعل أبو الفرج حين تعقب الفضائح المخزية من أحوال الساقطين والساقطات ليجعلها أخباراً تُروى وقصصاً تُقال.

على أنَّ الرواية لم تتم فصولاً، فلم يكِد الجزء الأول من المهذب يرى النور، حتى قابله الدكتور طه حسين برِدٍ متكرر، يُنكر فيه اتجاهه إلى

نشر الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد كتابَ اليتيمة للثعالبي في أربعة أجزاء، وكتابُ اليتمة سجلٌ حافلٌ بآثار أدباء عصره في شتى ممالك العربية وربوع الإسلام، شعراً ونثراً، وهو مصدرُ الدارسين لكثير من المغمورين والمشهورين معاً، حيثُ جمع من الآثار الفنية ما لا يُوجد في غيره، ومن بينها ما يندى له الجبين خلاعةً وسخفاً، وقد قال الأستاذ محمد محيي الدين^(١٣) في مقدمة الكتاب.

وفي الكتاب مجونٌ كثير، كما تجده في المختار من شعر أبي الرقعمق، وأبي القاسم الواساني، وابن لنكك وأبي الحسن السلامي، وابن مكره وابن حجاج وغيرهم، وقد تردّدنا كثيراً في أن نُجاري بعض أدباء هذا العصر - يقصد الشيخ الحضري ومن حاذاه - فنحذف هذا المجون، ولو من بعض نسخ الكتاب، ولكننا لم نشأ أن نحذف شيئاً مما في هذا الكتاب من المجون، كما يفعل بعض الناشرين، تحرجاً منهم وتأثراً، -زعموا- وحرصاً على مكارم الأخلاق ظنوا، لأننا لا نُؤلف كتاباً نختر فيه ما نشاء، وندع ما

واجبنا كشف انحدار من غرقوا في الإسفاف

المبتذل فقعدوا أصالة الإبداع

نشاء، وإنّا نحقق نصّاً قيّده صاحبه في زمنٍ كان الناس أشدَّ تحرجاً من هذا الزمن الذي نعيش فيه، ولأننا لا نرى من حقنا أن نتصرف في كتب الناس، ثم نُبقّيها منسوبةً إليهم، فيجيئنا يوم المدةِ يتعلّقون بمن ظلمهم يُجادلونه عن أنفسهم، والله يعلم أننا لا نقل عن هؤلاء تحرجاً من المجون، ولا حرصاً على مكارم الأخلاق، ولأن الغرض من نشر هذا الكتاب، واحتمال الجهد الجاهد في تحقيقه، والصبر على الكثير مما يُغري بعضه بالانصراف، إنما هو أن ندلّ قراء الأدب العربي على الحياة الأدبية، والحياة الاجتماعية والسياسية في هذه الحقبة، التي كان هؤلاء الشعراء يعيشون فيها، فلو أننا سمحنا لأنفسنا بحذف شيء مما اشتمل عليه الكتاب لكنّا قد أضعنا هذه الغاية، ولكنّا كمن يُجهّز جندياً للقتال فيضع في يده سيفاً من الخشب، ويُعّده على صهوة جوادٍ من قصب.

دون إبداع:

هذا ما قاله الأستاذ المحقق، وقوله لا يخلو من نظر، لأن الحكم بأن عهد الثعالبي كان المسلمون به أشدَّ تحرجاً من عهدنا الراهن حكمٌ لا تؤيده الشواهد، والهدى والضلال قائمان لا يفترقان في زمن من الأزمنة، ولكن عهد الثعالبي بالذات مما طُفح فيه الكيل وعمت البلوى، أما الخوف من أن يجيء المؤلف الذي حشد صنوف المجون ليسأل الشيخ يوم

في القرن الرابع ليقوم لم يكن مُتقراً عليهم في الوقت، ولا في الجهد، ولا في الفراغ، لم تكثر حاجتهم، ولم يشتد اضطرابهم فيها، ولم تُجلبهم المنافع والضرورات عن الفراغ للعلم والجِد في سبيل المعرفة، وأين تكون حياة الذين كانوا يعيشون في العالم العربي منذ ألف سنة من حياتنا هذه الأيام؟ وأين يكون استقراؤهم من اضطرابنا، وهذوؤهم من قلقنا، وفراغهم من امتلاء أوقاتنا؟!.. ومن أجل ذلك أثروا كتاب الأغاني وكلفوا به وتنافسوا فيه، ثم لم تلبث ظروف الحياة أن تغيّرت وإذا ملكٌ من ملوك الأيوبيين، يذكّر هذا الكتاب، ويتقدّم إلى عالم جليل من أصحابه هو محمد بن سالم الموصلي في حذف ما كان يرى فيه من الفضول.

ثم يقول الدكتور بعد كلام متصل^(١٤):

ونحن بين اثنين إما أن نُشر مثل هذا الكتاب ليقراه وينتفع به من لا يملك الوقت والجهد لقراءة كتاب الأغاني، وإما أن نُحلي بين الأدب العربي القديم وبين النسيان يلقي عليه أستاذه الكفاف، ويُقصّر العلم به على الذين يقرعون له، ويتخصصون فيه، وواضح أني أؤثر الأولى، فقراءة مختصرة لكتاب الأغاني خير من أن يُجهل الكتاب، ويُجهل مختصره، ويُجهل الأدب العربي كله.

لقد أجاز الدكتور لابن واصل أن يختصر ويحذف، وأجاز لنفسه أن ينشر ما كتبه ابن واصل، وأن يُشرف على تحقيقه! وهو بذلك يُجيز للحضري ما أنكره من قبل! ولا تناقض، فالزمن مُتخلّف بين الرايين! إنما التناقض في قول يتحدث فيه الزمان!

إن دعاة إثبات المجون من محققي التراث كثيرون، وكنا نظنهم ممن لم يتعمقوا في الدراسات الإسلامية من صفوة العلماء، ولكن الواقع العجيب ينطق بغير ذلك، فقد أشرف على تحقيق بعض الدواوين الشعرية والموسوعات الأدبية فريق من أئمة الرأي في الإسلام، وهم من الصفوة الكرام الذين لا يتطرق شك ما في خلوص سرائرهم، وعظيم بلائهم المشهود، هؤلاء الأمائل الأعلام حرصوا على إثبات المجون والتبذل، ودافعوا عن حقّه في الذبوع، ورأوا في إسقاطه خيانةً للمؤلف، وجناية على التراث، ونكتفي بأن نُشير إلى محققين كبيرين، لهما مركزهما العلمي الجليل بين الدارسين أولهما أستاذنا الكبير الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، وعميد كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية، وعضو مجمع اللغة العربية بمصر رحمه الله، وثانيهما أستاذنا الأكبر العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، رئيس الإفتاء المالكي بتونس، وشيخ جامع الزيتونة، وشيخ الإسلام بالديار التونسية، وعضو مجعبي اللغة في القاهرة ودمشق، ومفسّر كتاب الله في أجزاء قيمة ممتازة نُشرت تحت عنوان (التحرير والتنوير) هذان العلامةتان الكبيران، قد دافعا عن حق المؤلف القديم والشاعر السالف في نشر كلّ ما قال، لقد

القيامة عن حقه الذي ابتزّه حين حَذَفَ الفسق من كتابه فما أظنه إلا دعابة فكهة ساقها الأستاذ عفواً دون قصد، لأنّ هذا اليوم المائل المُفْرَج يقر فيه المرء مما أسلف من الأوزار، أما أن يحرص على أن يُثبت أنّه دون الفحش، وسطر الفجور فذلك لن يكون إلا إذا اعتدّ الشيخ الكبير أن هذه المبتذلات الهابطة مما يُقَرَّب بها إلى الله ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١٤) أما الحكم على العصر بإثبات ما قاله ما جئناه، فتلك دعوى عريضة تجذب بريقاً خادعاً لدى من يأخذون بالظواهر البراقة، لأنّ كتاب التاريخ في القرن الرابع الهجري، لم يدعوا في مجلداتهم المتتابعة شيئاً يُقال عن أحوال السياسة والاجتماع وطوائف الناس من هابطين ومرتفعين! وإذا أمكن الاستشهاد ببعض الشعر كدليل على انتشار المجون، فيكفي أن نذكر أسماء الشعراء بل يكفي في مجال التاريخ أن يستشهد لأحدهم بنموذج واحد، أما أن نحرص على جمع الخسيس من القول، والرذل من النظم لنقول إننا نقدّم الوثيقة الدالة على خلاعة

حملة غاشمة تنها من نصبوا أنفسهم

دعاة حرية نشر الفجور والتهمك!

العصر، فإن المؤرخين قد قدّموا آلاف الحقائق، المستغنية بوقائعها المشهودة عن نظم المجان والخلعاء، وهناك حقيقة فنية مهمة، هي أن الشعر المبتذل، الذي ورد في اليتيمة رديء من الناحية الفنية، فليست فيه وثبات ابن الرومي التصويرية مثلاً، حتى نقول إنه ضرب من الفن التصويري الدقيق، ولكنه سرّد للهنات السوقية، ولولع بالألفاظ الجنسية، على نحو ما يقوله العامة من المبتذلين، لو تحوّل حديثهم إلى نظم مفقٍ! هذا في أكثره الكثير! وقد قرأت ديوان ابن حجاج فما رأيت معنى شعرياً يدل على فن راق، بل رأيت الإسفاف المبتذل، واللفظ الكريه دون ابتكار يُقْتَنُّ به من يريدون أن يتمتعوا بهذا الضرب من الكلام! وأذكر أنّي قلت في مقال قديم عن مأساة هذا الديوان ما يفيد أن جامعة جيسن بألمانيا قد قسّمته إلى عشرة أجزاء، ووزعته على طلاب الدكتوراة من أبناء العرب والمسلمين؛ ليأخذ كلّ دارس قافية كالهزمة أو النون أو الميم أو الراء مما يكثر فيها الوزن، لتكون كلّ قافية من هذه الحروف مجالاً للتدوين لا التحقيق في رسالة علمية، تحفل بالنص الساقط فقط، مع مقدمة مبتورة لا تتجاوز عشر صفحات تسمّ العصر بالانحلال! وبين يديّ الجزء الخاص بحرف النون وهو يضم ثلاثمائة وستين صفحة، كلها فجورٌ متهتك، وليس بها من الخيال الإبداع والتصوير الفني ما يشفع لها في البقاء، وأنت تتساءل لماذا اهتمت جامعة (جيسن) بابن حجاج ومن على

شاكلته وحدهم من شعراء اليتيمة والأغاني، والجواب واضح هو كشف انحدار من غرقوا في الإسفاف المبتذل إلى الأذقان، دون أن يُدعوا شيئاً من الفن العربي الأصيل، باعتبارهم - في نظر الغرب - نموذجاً للشعر العربي على مرّ العصور. وكأنّ الأدب العربي في جاهليته وإسلامه حتى اليوم لم يعرف سوى هؤلاء من ذوي المروءات! لقد كان ديوان ابن حجاج وأمثاله مغموراً تجنّبوا بين المخطوطات الدفينة، فكيف حرص القارئون على الدراسات الأدبية بجامعة جيسن على بعثه وتوزيعه على عشرة طلاب من دارسي الدكتوراة، إن الثعالي في يتيمة الحافلة هو الذي نبّه هؤلاء إلى اصطياد ابن حجاج وأمثاله؛ ليكونوا وجهاً بارزاً للشعر العربي في أزهر عصوره كما يزعمون، ثم لك أن تسأل بعد ذلك ما الذي أفادته الدارس الذي رجّع من ألمانيا يحمل رسالة الدكتوراة في أساليب البحث العلمي؟؟ وما الذي عرفه من مناهج الدراسات الأدبية؟ وهو لم يزد على أن قرأ مخطوطاً سخيفاً، واكتفى بجزء منه لينشره في كتاب، مع مقدمة لم تتجاوز الصفحات العشر! أيكون مثل هذا الدارس مهتئاً لأن يكون من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات العربية؟ إن درجته العلمية تمنحه هذا الحق، بل تُعطيه منزلة لدى بعض الناس يعلو بها عن من لم يدرس الأدب في ألمانيا؟ ولا أنكر أن نفرأ من المبعوثين قد سلكوا مسلك الجد، وقاوموا الصعاب؛ حتى ظفروا بأرقى الإجازات العلمية عن جهد وموهبة! ولكنّ ما نقول فيمن عكفوا على نشر هذه التفاهات فحسب! قد يكونون معذورين لأنهم تلاميذ يخضعون للمشرّفين الكبار! والمشرّف الكبير بانتحائه هذا المنحى ذو غرض مريض...

هذا عن كلام الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمة كتاب اليتيمة، أما أستاذنا العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقد اهتم بما عثر عليه من ديوان بشار بن برد جمعاً وتحقيقاً وشرحاً، وقد أبدع غاية الإبداع في نهج التفسيري، فلم يدع غامضاً من مسائل اللغة والبلاغة والنحو والتصريف إلا جالاه بإشباع وإمتاع. وهو يذكرنا بشرح العلامة الشيخ سيد المرصفي على كتابه الكامل؛ لأنّ كلاً من ابن عاشور والمرصفي قد أعادا للأذهان تأليف ابن جني والتبريزي والمرزوقي في تعليقاتهم العميقة، وغوصهم الدقيق، وتهديمهم إلى أخفى المعاني، وبصرهم بأدق التراكيب، ولكن، نرى أستاذنا ابن عاشور يُقدّم الديوان بدراسة أدبية شافية وافية ذات شمول واستشفاف ثم يهتمها برأيه في تسجيل ما روي من مجون بشار، فيقول في إصرار^(١٥):

وما ينبغي التنبيه عليه، أن بعضاً من أهل الأدب في عصرنا قد استحسنوا أن يتصرفوا فيما ينشرونه في الكتب بحذف ما يلوح لهم من الألفاظ، التي يُستحيا من ذكرها في المحادثات الموقرة. وفي ديوان بشار من هذا النوع شيء ليس بالقليل، ولما عزم على نشر الديوان، فرضت في نفسي التردد بين طريقة إثبات شعر الشاعر على ما هو عليه، وبين طريقة

ظلموا المرأة فقالوا: إنها تحررت

على يد شهرزاد ألف ليلة وليلة؟

المناسبة قول القائل كيف يلحق الحريري بالهمذاني؟! والهمذاني بديع الزمان، والحريري لا يبلغ أن يكون بديع يوم واحد، أما أن المدرس يختار العفيف لطلابه ويترك المبتذل، فالمدرس ليس وحده الذي يقرأ الشعر ويرويه، لأن الديوان يتشر بين الناس جميعاً، طلاباً وغير طلاب، فإذا تحكم الأستاذ فيما يعرضه للطلاب، فمن يرشد بقية القارئ؟! ولنا أن نسأل أستاذنا العلامة ابن عاشور، أنال بشاراً مكانته الشعرية بقصائد الجد أم بقصائد المجون، إن بشاراً كان رأس المحدثين، بما أبدع من قصائد الوصف والمديح والثناء والغزل العف! وأكثر مقطوعات الغزل العابت كانت استرضاء لبعض الجوارى اللاتي لا يفهمن من الشعر إلا السطحي الساذج على نحو (ربابة ربة البيت) كما أن أكثر أهاجيه كان إمعاناً في تحريج من على شاكلته من المنحدرين، وقد قال فيهم، وقالوا فيه، فما كان مقالته في هذا المضمار موضع التبريز!

لقد كان المحدثون عن الأدب المكشوف في التراث العربي من المختصين الدارسين، ولكن حادثاً هب إعصاره فجأة على مصر ففتح باب الحديث لكل من يستطيع أن يمسك القلم، أو يجد مجالاً للنشر، ممن لم يقرأوا من التراث شيئاً ذا بال، ولكنهم عند أنفسهم دعاة حرية، وأرباب فكر، ولا بد أن يسهموا في القضاء على كل رأي يخالف نشر الفجور المتهتك، فقد ظهرت طبعة لكتاب (ألف ليلة وليلة) غير الطبعة التي تناولها التهذيب بحذف ما يعتبر قوله جريمة داعرة، وشارت ثائرة ذوي الحمية فرفعوا الأمر إلى القضاء.. وقد رأت محكمة جُنت الآداب بالقاهرة أن تتعمق الأمر تعمق القضاء العدول، فدرست الموضوع دراسة عابدة ثم انتهت إلى وجوب مصادرة الكتاب، ونشرت جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٠/٦/١٩٨٥م حثيثاً الحكم الدقيقة، وقد جاء بها ما فحواه أن كتاباً ما من التراث لا يمكن أن يرقى إلى مصاف الكتب

حذف ما قد يستحيا منه، ثم جزم بسلوك الطريقة الأولى؛ لأن فيها أداء لأمانة النقل على ما هي عليه، إذ لا ينبغي أن يصور الشاعر أو الكاتب على حسب ما يشتهي الناقل أو القارئ، بل ينبغي أن يظهر كما هو بأخلاقه وألفاظه. وأخلاق أهل عصره، وعاداتهم، كما قيل (صحيفة لب المرء أن يتكلم) ولشأن بالذين نضلع من الشاعر ما أفسده طبعه، ولا تشعب ما تشقق به نبعه، على أن أهل الأدب قد اغتفروا المازحة في مثل هذا الباب، وقد سلك الحريري ذلك في المقامة العشرين، ثم القارئ والمتخبط والمدرس أمراء أنفسهم في الاختيار، ولو ذهبنا نتخبط من خلق الشاعر ما لا يروق لدينا من صور حاله وعقله، لكثرت للشاعر صور بكثرة الناحيين، واختلاف أذواق الناشرين، فإن هذا لا يضبط بحد، فيوشك أن نعد إلى الشعر فنحذف منه غزله، إذ معظمه لا يخلو من غرض الاستحياء لقارئه بمحضر مختلفي الصنف والسن.. وأمانة العلم توجب إثبات ما تركه القائلون كما هو، وربما اعتذر بعض الناس لحذف ما يحذفونه بأنه مما لا يحسن أن يدرس بالمدارس للصغار وهو عذر وإذ ليس من الواجب تدريس الكتاب كله، وإنما المدرس يتخبط ما يراه حسناً، ويترك ما يراه قبيحاً وكم من عائب قولاً صحيحاً.

أثبتنا كلام الشيخ ابن عاشور على طوله، لنرى أنه يردّد ما قاله نظراً من قبل، ويزيد عليهم حين يزعم أن الحذف ينقص من تصوير عصر الشاعر اجتماعياً وأخلاقياً، وهو زعم تردّد من قبل على ألسنة من يعملون الشعراء وحدهم مرآة العصر، وهو زعم وإذ لا سند له، لأن الشعراء ليسوا وحدهم في الميدان، فجوارهم نجد الفقهاء والزهاد والمحدثين والمفسرين وأئمة الكلام من فطاحل العلماء، وكلهم يمثل جانباً من جوانب العصر، وما أتى الدكتور طه حسين في بحوثه عن العصر العباسي إلا من حيث جعل أمثال أبي نواس وبشار ومطيع ابن إلياس والحسين بن الضحاك والباله بن الحباب ومن نحا منحاهم المنحدر هم وحدهم من يمثلون العصر العباسي الأول، مع ازدحام هذا العصر بأنماط عالية من أهل التحرز والتصون، من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري ويحيى بن معين، وعبد الله بن المبارك وعمرو بن عبيد، وكلهم متبوع غير تابع، فإذا كان لكل بشار أو أبي نواس طائفة تميل إلى مجونه، فتلك الطائفة لا تبلغ معشار من يلتفتون حول الأئمة الكبار من العلماء والمحدثين! وقد يوجد في العصر الواحد خليع كابن سكرة ومتصون كالشريف الرضي! فأيهما الذي يمثل العصر من هذين الشاعرين! إذا كان الشعر وحده هو المقياس!؟

أما أن أهل الأدب قد اغتفروا المازحة لأمثال الحريري في المقامة العشرين، فليس ذلك بانع أن نقول إن الهمذاني والزحشري والأصفهاني والبارجي كانوا أعف منه قولاً فيما كتبوا من المقامات، وإن الحريري بالغاً ما بلغ لا يقاس بالهمذاني في فنه المحكم وتصويره الدقيق، وأذكر بهذه



المقاد



طه حسين

هذا الحكم العادل المؤيد بالحجج، المستند إلى نصوص من أحكام محكمة النقض قد أعقب من مختلف الصحف اليومية ضجة هائلة وكأن زلزالاً أوشك أن يُدمر الكون! فأنت تقرأ ما انهال من تعليقات الأدباء والأصلاء معاً.

وأكثر ما قيل خارج عن موضوعه كل الخروج، لأن أساس المشكلة هو المجون بين الحذف والإبقاء، وكان المعقول أن يدور حوله التعليق الهادف لنصل إلى الحق من أقرب طريق، ولكن حضرات الصاخبين قد تركوا (مناط الخلاف) كما يقول الأزهريون، وتفرقوا طرائق قدرا، فمن قائل إن كتاب ألف ليلة وليلة كتاب عالمي، أحدث دويته في أوروبا وعلى أسسه قامت بعض الفنون المشتهرة في الأدب القصصي، ومن قائل إن بوكاشيو أديب إيطاليا الأكبر قد كتب مجموعة الرائدة (الديكاميرون) بوحي من ألف ليلة وليلة، ففتح بذلك فتحاً جديداً في أدب الغرب إذ اختذه ماث الفنانين، ومن قائل إن تحرير المرأة قد تم على يد شهرزاد، وبذلك سبقت حركات التحرر النسوية في أوروبا، وصار ألف ليلة وليلة معلّم تحرر اجتماعي وإنقاذ للأسرة فوق ما هو معلّم فني في دنيا الرواية الأدبية، ومن قائل إن الكتاب دعوة إصلاحية سياسية للتحرر من سيطرة الحاكم العاشم، ومجاهته عملياً بما يترقبه من سوء المصير، ومن قائل -وهو الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود- إن هذا الكتاب يمثل الدور الكبير الذي قامت به مصر بالذات، لأن حكاياته وإن نشأت في أقاليم مختلفة لكن الحكاء المصري في القرن الرابع عشر الميلادي قد استطاع أن يجعل منها صيغة مصرية، تُقرأ في المقاهي والندوات منذ هذا القرن البعيد، ومن قائل إن الجرائم الظالمة من اغتيال واختلاس وقهر تُحتم دائماً بوقوع المجرم في العاقبة الأليمة ليلقى سوء العقاب، ومن قائل إن كتب التراث -غير ألف ليلة- تضم ٩٠٪ من هذا السقوط فلماذا لم تُصادر، وهو قول يدل على أن صاحبه الجامعي لا يعرف شيئاً عن أدب التراث، وأن هذا الرقم قد اخترعه اختراعاً لا يجزئ عليه إنسان عاقل. فأين كتب التفسير والحديث والأخلاق والتشريع والتاريخ؟ بل أين كتب الأدب وحدها من أمثال الكامل والأمال والشعر والشعراء وطبقات الفحول وما لا يتسع المقام لسرده وما بهما من الابتذال إن وجد لا يساوي واحداً في المائة فحسب! أما المضحك حقاً فهو أن تكتب إحدى المجلات: إن ألف ليلة معجزة العرب، لأن معجزة العرب هي الكلمة!!

فإذا راجعنا هذه الأقوال وما يؤفّقها مما لم نستطع تلخيصه، فإننا نجدّها، لم تُصب المحز في نقطه الخلاف، فللكتاب مزاياه التي لا يُنكرها من حاولوا إنقاذها من الفواحش، فإنهم جميعهم لا يقولون: أحرّقوا الكتاب أو أعدموه، ولكنهم يقولون أنقذوه من الأوضار الشائنة، ليبقى للرواية العربية منه وجهها الجميل، وتكون المفاجأة الصارخة حين يُستأنف الحكم، فتقضي محكمة الاستئناف ببراءة الناشر، وتُسجّل جريدة الأهرام حَيثِيَّات البراءة، بما لا يخرج عن «أن المحكمة قد استقرت في

المقدسة التي لا يجوز المساس بها، والتي تتأبى بقداستها على حكم القانون، وإذا كانت شُرطة الأحداث ونيابة الآداب قد طالبتا بإعمال حكم القانون في هذه الطبعة، فإن هذا الكتاب قد تعرّض من قبل إلى تهذيب منهجي حذفت منه عبارات التوقع وما يندش الحياء العام، تلك الطبعة المهدّبة صدرت عن دار الشعب، وتولى إعدادها الأستاذ أحمد رشدي صالح، وقال إن الكتاب يدخل كل منزل ولا بدّ من تحليله مما يسوء كرامة الأسرة، بحيث يُقبل على قراءته الآباء محبّدين أبناءهم على هذه القراءة ذات القيمة الجيدة بعد الحذف والتهذيب، لكن من جاؤوا بعده لم يلتفتوا إلى هذا المغزى النبيل، فانتشرت الطباعات السوقية مستغلة اسم التراث في الكسب الحرام، حين تجمع الحكايات المثيرة والأخبار الفاضحة لتكون مسلاة للنشء يقرؤونها من خلف ظهور آبائهم، ثم قالت المحكمة ما نصّه:

«ولما كانت نسخ الطبعة المضبوطة من مؤلف ألف ليلة وليلة قد طبعت واستوردت، وأعدت للبيع للجمهور ولم تكن نسخاً محفوظة في إحدى المكتبات العامة لتكون تحت أيدي المتخصصين في شؤون التراث، فإن المحكمة والحال كذلك تقرّر أن هدف المهتمين من استيراد الطبعة المضبوطة بقصد الاتجار فيها، لم يكن نشر التراث بل هدفها الكسب الماديّ مستغلين في ذلك اسم التراث. رغم احتواء النسخ المضبوطة من هذه الطبعة على العديد من روايات الجنس والشذوذ الجنسي، والألفاظ الجنسية الصريحة والأشعار الفاضحة، كما أن محكمة النقض قد قضت بأن الكتب التي تحوي روايات عن الجنس وما تفعله العاهرات من التفریط في أعراضهن، يُعتبر نشرها انتهاكاً لحرية الآداب والأخلاق» ثم انتهت المحكمة بمصادرة النسخ المطبوعة وتغريم المتهمين غرامات مالية قدرتها، كما رفضت تدخّل اتحاد الكتاب:



أحمد أمين

أن هذه المحاولة التي تَرَى أن تطبع من الكتاب طبعتان، لا تجد مبررها القوي، لأننا نحرص عليها إذا كان المحذوف ذا قيمة فنية كبيرة، أو دلالة اجتماعية قوية، أو حفظاً لأناس من المبدعين يجب ألا تغيب أسماؤهم عن سجل الخالدين، أما والمحذوف من الهوان بحيث لا يجوز أن يُسأل عنه، فقيم هذا التمسك المشد به، وإعدامه خير من بقاءه بكل المقاييس!

ولن نتحدث في هذا المجال عما يُنشر من أدب إباحي معاصر في القصص الخلية، ويُرى من هبوط في بعض الأفلام المأجنة. لأننا نتحدث عن كتب التراث فحسب، وإن كانت قضية المحجور المعاصر من الخطورة بحيث تتطلب بحثاً ماثلاً نرجو أن تُساعد الوسائل على استيعابه فيما بعد، وفي مقالات العقاد والزيات وأحمد أمين التفاتت جيدة إلى محاربة هذا السفه البغيض، وقد وجدنا من يسأل كيف أباح المتحرزون من القدماء أمثال ابن قتيبة هذا المنحى، كما سبقت الإشارة إليه من قبل، وهم ما هم في إمامة الدين، وشرف التصون، وكمال المروءة، فوجدنا من يُجيب على هذا التساؤل. بأن الكتاب لعهدهم - قبل ظهور المطبعة - لم يكن واسع الذبوع، مطلق الانتشار، إذ كان قراؤه حيثن من خاصة الخاصة، وما كان هؤلاء يظنون أن ما يُنشر من الأدب المكشوف سيقع في متناول العامة، بل هو حجرٌ محجورٌ على ذوي الاختصاص من الدارسين، فلا خوف عليهم من انتقال العدوى لما يملكون من الحصانة الخلقية الواقية! هذه كانت مبررات ما وقعوا فيه من تسجيل هذه الابتذالات! ولكن الحال اليوم غير بالأمس، فالكتاب المطبوع تتجاوز نسخه الآلاف ويقع في يد المتحرز والمتهاون، بل إن قراءه من العامة أضعافاً أضعاف قرائه من الخاص، وبذلك أصبح طبعه مصدر خطر أكيد إذا لم يحط بالضوابط الواقيات!

هذا موضوعٌ خطير، لا أظن بحثاً واحداً يصل فيه إلى موضع الإقناع المستريح، وحسبي أن ألقى من الأضواء ما يساعد على تبديد ظلمات متراكمة حتى يُشرق الصباح الجديد.

المراجع:

- (١) رسائل الجاحظ ج٢ ص ٩٥ تحقيق عبد السلام هارون.
- (٢) أمراء البيان للأستاذ كرد علي ج١ ص ١٢٢ ط ١.
- (٣) مقدمة كتاب البخل مطبعة وزارة المعارف سنة ٣٧ ص ١١.
- (٤) مقدمة عيون الأخبار ط (١) ص ١٢ دار الكتب.
- (٥) سورة الأعراف: ١٨٩.
- (٦) سورة البقرة: ١٨٧.
- (٧) أمراء البيان ج٢ ص ٣٣٩ الطبعة الأولى.
- (٨) الشر الفني ج١ ص ٢٣٤ الطبعة الأولى.
- (٩) مذهب الأغاني ج١ المقدمة ص ج، ط ١.
- (١٠) حديث الأربعاء ج ٣ ص ٨٠ ط ١ دار المعارف.
- (١١) مقدمة تجريد الأغاني ج١ ص (ب) مطبعة مصر.
- (١٢) مقدمة تجريد الأغاني ج١ ص (ج) مطبعة مصر.
- (١٣) مقدمة بنيمة النعالي ج١ ص ٥ مطبعة حجازي ط ١.
- (١٤) سورة الشعراء: ٨٨، ٨٩.
- (١٥) مقدمة ديوان بشار ج١ ص ١١٩ - الشركة التونسية للتوزيع.

وجدانها أن الكتاب المضبوط لا يُعتبر كتاباً في الجنس، كما لم يُكتب أصلاً لخدش الحياء، كما أن السوق مليئة بكتب من التراث تحمل ما يحمل من عبارات الغزل الصريح، ويجب أن يُنظر إلى الكتاب ككل متكامل لا إلى عبارات مُنفصلة عن أصلها، ومنه استقى كبار الأدباء مصدر روائعهم الأدبية مما يتفي عنه مظنة إهاجة الشهوة لدى قرائه، كما تهيب المحكمة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب أن يعمل على وضع ضوابط لكتب التراث، والعمل على تنقية هذه الكتب من الهنات منعاً لكل مظنة!.

هذا موجز ما انتهت إليه محكمة الاستئناف، وإذا كانت قد طلبت في نهاية كلامها أن يعمل المجلس الأعلى للآداب على تنقية كتب التراث مما يثافي الآداب، فإنها بذلك تُكرّر ذكر هذه السقطات المبتذلة! وهل ثار أرباب الحمية إلا من أجل هذه السقطات، وهل طالبوا بتنقيح كتب التراث إلا لثمن أمثال هذه الابتذالات المأبطة من نسخة ألف ليلة وليلة! وإذا كانت المحكمة تقول إنه قد استقر في وجدانها أن كتاب ألف ليلة وليلة لا يُعتبر كتاباً في الجنس، ولم يُكتب أصلاً لخدش الحياء! فنحن نوافقها على أن الكتاب ليس كله كتاب جنس، بل ليس أكثره كتاب جنس! ولكنه يتضمن ما يُعري بالبتذالات الجنس، وهنا مربط الفرس كما يقال، أما أنه لم يُكتب أصلاً لخدش الحياء، فلا يتفي ذلك أن خدش الحياء قد جاء عن طريق التبعية، وليس المهم أن يكون هذا الخدش أصلاً أو فرعاً، إن المهم أن ما يُخدش الحياء مدوّن مسطور، بما لم تستطع المحكمة أن تُكرره في شيء، وإذا جاز لنا أن نترك المحكمة الرسمية في حدودها الضيقة، إلى محكمة الرأي العام في أبعادها المترامية شرقاً وغرباً، فإننا نسأل: أيها أفضل؟ أن تكون النسخة المهذبة هي الذائعة، أو تكون النسخ التي تحمل هذه الابتذالات، وإذا كان لهذا الكتاب منزلته الرفيعة في الشرق والغرب، أتتخفّض هذه المنزلة حين تُنفذه من سفاهات الجنس، أم أن هذه المنزلة تظل ناهضة بما يحمل الكتاب في صفحاته البريئة من أفانين الخيال؟ وإذا كانت النسخة المنقحة تؤدي دور الكتاب في التاريخ للمجتمع، والإلهام للفنانين، والتسلية للقراء، فلماذا الإصرار على وجود ما يُنخفض بمستواه؟ إلا أن يكون الإسفاف غرضاً مقصوداً بالذات!

لقد قرأتُ بصدد العلاج لهذا التضارب بين الآراء، ما انتهى إليه بعض الذين حاولوا التوفيق بين آراء من يصممون على نشر كل ما جاء من عبث دون إسقاط، ومن يرون أن تُحذف البذاءات دون انتظار، فوجدتهم يرون أن يُطبع كتاب كالأغاني أو البيتمة أو ألف ليلة طبعتين، طبعة منقحة مهذبة ذات عدد كبير للعامة، تتعدد طبعاتها بحسب نفادها من الأسواق، وطبعة كاملة محدودة العدد لخاصة الدارسين لا تُباع بالمكاتب، ولكنها تُوزع على دور الكتب الحكومية لتكون قريبة من ذوي الدراسات العليا، وهي في هذا النطاق المحدود، بعيدة عن أيدي النشء، ولن تُتكرر طبعاتها، إذ إنها كالوقوف المرصود، لا يُعبّث به أحد، وأنا أرى